الثقافة التي نريد

◆ بقلم رئيس التحرير

على الكتاب أنْ يكون الفأس التي تُكَسِّر البحر المتجمد فينا

-كافكا-

هل نستطيع أن نرفض الحضارة؟ إذا كنا لا نستطيع فلماذا لا نلحق بركبها؟ إذا كنا لا نستطيع اللحاق بها، فلماذا لا نحاول؟ إذا كنا لا نعرف فلماذا لا نتعلم؟ وإذا كانت الميزة الحاسمة التي تميز الإنسان هي التعلم، فلماذا لا نتعلم؟ كيف يجب أن نتعلم؟

هل نستطيع رفض الثقافة؟ إذا كنا لا نستطيع فلماذا لا نتثقف؟ إذا كنا قد فشلنا، فلماذا لا نحاول من جديد؟ إذا كنا قد نجحنا، فأين أختفت ثمرات نجاحنا؟ إذا كنا لا نعرف، فلماذا لا نتأمل ونفكر كيف يجب أن نفكر؟ إذا كانت هناك احتمالات أخرى، فلماذا لا نتذاكرها معاً؟

والحضارة تمثل سلطة الذكاء البشري على الطبيعة(فن العمل والصناعة، جهد الإنسان لتحسين معيشته)، والثقافة سلطة الإنسان على نفسه وعلى الآخر(فن الخلق المستمر للذات)، والسياسة فن الممكن، والحضارة بحاجة إلى تعلم، والثقافة بحاجة إلى تأمل، والسياسة بحاجتهما، فلماذا يقف المثقف بباب السياسي ينتظر جائزته؟ هل المثقفون بحاجة إلى ثقافة أم الثقافة بحاجة إلى مثقفين؟

ألم يأنِ للمثقفين أن يقوموا بواجباتهم؟ ألمْ يأنِ لنا أن نعيد النظر في الثقافة التي نريد؟ وهل يمكن إعادة النظر بدون طرح الأسئلة المزلزلة؟ هل هناك ضرر من الأسئلة التي لا نعرف أجوبتها؟ هل هناك ثقافة صمَّاء وبَكْمَاءْ؟ فإذا كانت كذلك فلماذا نسميها ثقافة؟ هل يوجد ثقافة فاسدة؟ أليست الأطعمة الفاسدة أقلُّ ضرراً من الثقافة الفاسدة؟ بين ثقافة الفساد وفساد الثقافة أسباب وحكايات نعرفها ونتجاهلها، فلماذا لا نتوقف عندها؟

هل هناك مَنْ يخاف الأسئلة؟ ولماذا؟

لماذا يشيع بين الناس أنَّ المثقفين هم أجبن الناس؟ أليس منهم رجلٌ رشيد يخبرنا لماذا الصمت أمام هذا الحجم الهائل من الفساد الذي سيبتلعنا؟ أيهما أكبر: حاجة السياسي للمثقف أم حاجة المثقف للسياسي؟ وماذا يحتاج المثقف من السياسي؟ فإذا كان لا يحتاج فلماذا يتبعه دوماً؟

هل هناك رقابة على الدعم الممنوح للثقافة؟ هل هناك تناسب بين الدعم وجودة المنتج الثقافي؟ هل يختلف المنتج الثقافي المدعوم عن غير المدعوم؟ ماهي نوع الثقافة التي نريد؟ ماذا تنتظر السلطة من الثقافة المدعومة؟ لماذا نعاني تخلفاً ثقافياً في الوقت الذي تبرز فيه بشدة ثقافة عالمية جديدة متجددة؟ كيف نؤسس لإقامة مجتمع المعرفة؟

لماذا تقوم دار نشر محترمة بطبع وتوزيع كتاب لا يستحق إلا التنور؟ لماذا تنشر صفحة ثقافية أو ملحق ثقافي نصاً أدبياً رديئاً؟ أليس هذا النوع من الفساد الثقافي قلل عدد القراء الذين فقدوا الثقة في كل ما هو محلي؟ ألا تستحق هذه الظاهرة المكافحة؟ أليس للبيئة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، الدور الرئيس في طرد العقول المهاجرة؟ أليس للبيئة الكابحة لحرية الفكر ونشر المعرفة، دورٌ في التخلف؟ أليس للتسلط والتذبذب وهوس الأمن القومي وتشديد سبل وأساليب الحماية، تأثير سلبي على نمو استقلال الشخصية والثقة بالذات والكفاءة الإبداعية والقدرة على التفكير الصحيح منذ الطفولة النامية في ظل كبت التساؤلات وحب الاكتشاف والمبادرة بدلا من استنمائها؟ ما هي مخاطر الثقافة النابعة من الفساد الإداري؟ أيهما السبب فساد الثقافة أم تردي نوعية التعليم؟

يقرأ الطالب ويحفظ من أجل النجاح فقط، مما يُقَوِّضُ أهم أهداف التعليم الأساسية، وهو تحسين نوعية الحياة وإغناء قدرة المجتمعات.

إذا كان مثقف العصر الجديد يخاف أنْ يشير إلى النص الرديء، هذا نص رديء، فكيف ننتظر منه أن يؤشر على الفاسد: هذا رجلٌ فاسد؟ هل من المعقول تصور إقبال الناس على النصوص الرديئة؟ أليس من الواجب تأشير بعض الكتب، التي قد تسبب إجهاضاً ثقافياً للقارئ المبتدأ، فيهجر القراءة إلى الأبد، أو يفسد ذوقه فيسير في اتجاهات الثقافة الفاسدة؟

كيف تحولت الثقافة إلى أحد مصادر الكسب دون سبب؟ ما هو السبب الأول للفساد الثقافي؟ هل الفساد الثقافي سبب أم نتيجة للفساد الإداري؟ فما هو السبب الأول للفساد الإداري؟ لماذا الرجل المناسب ليس في المكان المناسب؟ لماذا يصعب نزع المسئولين عن كراسيهم رغم معرفتنا بفسادهم؟ لماذا يفضل في المنصب الإخلاص الأجوف على الكفاءة والمهارة؟ إذا كان الفاسد قد خسر نفسه فكيف ننتظر منه أن يخلص لشعبه؟ رفض سارتر جائزة نوبل عام 1964 وأوضح بأنه عندما سيقدم على تأييد قضية كقضية فيتنام مثلا فإن موقفه سيكون أقوى بوصفه الكاتب الذي رفض جائزة نوبل.

ما هو دور الثقافة في تفعيل النشاطات البشرية؟ لماذا يرجع قادة العالم الثالث أسباب تخلفهم إلى نظرية المؤامرة، أو ضعف اقتصادهم الريعي الذي يعتمد استنضاب الموارد، أو أية أسباب أخرى بعيدة عن تخلفهم العلمي والثقافي؟ لماذا يهتمون بقصورهم وهندامهم وسفراتهم إلى الخارج

أكثر من اهتمامهم بمشاكل تهدد مصير شعوبهم كرداءة التعليم والفقر والفساد؟

ما هي مقومات مجتمع المعرفة؟ هل يوجد غير حرية الرأي والتعبير والتنظيم وضمانها بالحكم الصالح، ونشر التعليم وتطويره وتوطين العلم وبناء قدرات البحث العلمي، والتحول نحو نمط إنتاج المعرفة وتأسيس نموذج معرفي أصيل كمقومات أصيلة؟

لماذا لا يوجد لدينا منتج ثقافي يحقق أرباحاً مادية(جريدة، مجلة، كتاب) أو صدىً قويا يُسْمِعُ شعوباً أخرى بأننا شعبٌ مختلف؟ لماذا لا نجعل من الثقافة مصدراً للإنتاج المعرفي؟ هل أنَّ ما يسمى بالاقتصاد الريعي، هو الذي أَضْعَفَ الطلب على اقتصاد المعرفة، وهَدَرَ فرص إنتاجها محليا وتوظيفها بفعالية في النشاط الاقتصادي؟ أية ثقافة سادت العقل السائد، وأدَّتْ إلى استشراء المنفعة، وتقديم المصلحة الخاصة على المصلحة العام، والفساد الإداري والاجتماعي والأخلاقي، وغياب النزاهة والمسئولية؟

لماذا يتخاذل المثقف المبدع عن صياغة أفكار وأحلام شعبه في نصٍّ أدبي أو فني؟

هل سيكفيه عذره بحاجته إلى المال التي تسرق منه أوقاته؟ ألم يكن معظم المبدعين فقراء؟ وحتى الأغنياء منهم ألم يهجر معظمهم الثروة، ليعودوا إلى الفقر؟

إذا تخاذل المبدعون كيف سنحافظ على هويتنا وأصالتها؟ كيف سندافع عن وجودنا وحقوقنا؟ كيف سنغير موقعنا الافتراضي في هذا العالم الفسيح الراكض؟ كيف ننتقل من طور الاستهلاك الثقافي/العلمي إلى طور الإنتاج؟ يعيش العالم الغربي تحت مظلة(أنتج لتربح، أربح لتبدد)، أما نحن فمظلتنا(لا تنتج لا تربح، اختلس لتبدد) فلماذا لا نتحول إلى(أنتج لتربح، أربح لتستثمر)؟

أليس لجودة المنتج الثقافي أولوية كبيرة لم يُنْتَبَهْ إلى أهميتها بعد؟

لماذا انحصر علماؤنا ومثقفونا في جدلية عقيمة حول ضرورة توحيد المصطلحات المترجمة بينما المسألة هي إبداع المصطلحات؟

العلم يتقدم بقفزات تتسع كلَّ يوم، والمصطلحات تنشطر وتنقسم وتتوالد بسرعةٍ كبيرة، بينما نحنُ نحبو في خطوةٍ بطيئة إلى الأمام، ونظلُّ نناقش سلبيات وإيجابيات هذه الخطوة؟

أليس الاختلاف المشروع الذي انقلب خلافاً تولد من فهمنا الخاطئ للديمقراطية هو الذي يؤخرنا عن الركب، مع انشغالنا بالكلام والجدل بدلاً من العمل؟

مَنْ يكتب لـ مَنْ؟ مَنْ يقرأ لـ مَنْ؟ مَنْ يترجم لـ مَنْ؟ مَنْ ينشر لـ مَنْ؟

هل يوجد اختلاف حول حقيقة (أننا لا ننتج العلم الحديث، وتنحصر طموحاتنا في استيراد منتجات أحدث)؟ كيف نُحَوِّلُ مجتمعنا من كسل المستهلك وعجزه إلى نشاط المنتج وإبداعه؟

العلم يكنس الأيديولوجيات ويطرد شبح الخرافة ويفكك سذاجة قدسية الأشخاص

تسلل التفكير العلمي إلى جميع مفاصل حياة مجتمعات العالم الأول، بينما انحسر في مجتمعات العالم الثالث في الجامعات ومراكز البحوث.

أليست نجاحات مجتمعٍ ما أو إخفاقاته تعود إلى درجة ثقافته؟ وما هو مقياس درجة الثقافة؟ هل يمكن اعتماد عدد المثقفين أم عدد طلاب العلم؟ وهل يوجد مجتمع يرفض العلم؟ وهل يطلبون العلم بالشكل الصحيح؟

كيف نتمكن من زيادة حجم الاستثمارات في قطاع التعليم العالي، ونشر الثقافة وتيسير الوصول إليها؟

لا زال الإنسان يستعبد أخاه الآخر، فيقوم أحدهما بكل العمل ويستمتع الآخر بكل ما ينتجه العمل، ولا زالت الشعوب يتعالى بعضها على بعضها، تطالب بحقوقها في حياة كريمة وهي تحرمُ شعباً آخر من هذه الحياة، ولا زالت بعض الشعوب من دول العالم الأول يحاولون فرض نمط حياة معينة بدعوى المساعدة والإنقاذ

ألم ترتكبْ أسوء الإبادات الجماعية والجرائم الوحشية، باسم الدين والوطن والمصلحة العامة؟

كانت الثورة الفرنسية قد قررت في المادة الأولى من حقوق الإنسان (يولد الناس أحراراً ويظلون أحراراً متساويين في الحقوق). لكنَّ الثورة الفرنسية ارتكبت من المجازر في سنواتٍ ثلاث فاقت ضحايا اللويسات الستة عشر، وأحرق رجال الدين والكنيسة بتهمة معاداة الديمقراطية، ثمَّ صَعَدَ روبسبيير مع سبعة عشر من معاونيه إلى المقصلة التي أزهقت أرواح الآلاف بأوامره وتآمره.

متى سنؤمن إنَّ إنسانية الإنسان واحترام حقوقه وصيانة كرامته في حياة كريمة، هي أساس بقاء أي نظام حكم؟

ألم يُسهم القمع والتهميش في قتل الرغبة في الإنجاز والسعادة والانتماء؟ ومن هنا ساد الشعور باللامبالاة والاكتئاب السياسي، للباقين في البلد، أمَّا المهتمين فقد هاجروا أو يحاولون الهجرة بدلاً من محاولة إحداث التغيير المعرفي المنشود.

أليس صحيحاً بأنَّ الناس يميلون إلى جمع المال والثروة ألف مرة أكثر من ميلهم إلى تحصيل الثقافة؟ ألا يعلمون يقيناً لا شكَّ فيه، أنَّ سعادة الإنسان تتوقف على ثقافته أكثر مما تتوقف على ثروته؟ وإذا كان من حق كلَّ إنسان أن يقول رأيه بكل حرية، فلماذا تحجب الآراء المخالفة لأطاريح السلطة في الصحف، وتحرق الردود والمناقشات الموجهة ضدها؟

بفرض أنَّ الناس كلهم مثقفون، فهل يعرف كلٌّ دوره بحسب عمره ومكانته الاجتماعية ودرجة ثقافته؟ وهل هو راضٍ عمَّا قدمَّه لتحقيق مهامه وواجباته أم أنَّهُ عاجز عن تحقيقها؟

على الشاعر أن يشعر، وعلى الناقد أن ينقد، وعلى الكاتب أن يكتب، والعامل أن يعمل، والرسام أن يرسم، لا لشيء إلا ليشعر براحة البال، وعلى المثقف أن يرنو دوماً للتغيير نحو الأفضل، فالمثقف ثورة مستمرة، ما لم يتخلَّ عن مبادئه مقابل لقمة العيش، أو يداهن أو يمالئ على حساب نفسه، وماذا ينفع المرء إذا ربح العالم كلَّه وخسر نفسه؟

إنَّ تجربة دار نشر سبيريز الرائدة في استقلال المعرفة عن النشاط السياسي، يجب أنْ تتكرر ويُحتذى بها في دول العالم الثالث، لأنَّ مجتمع المعرفة يستدعي ضرورة وجود مؤسسات ذات استقلال تام، لا تحكمها وزارةٌ ولا سفارة، لا تحكمها إلاَّ الثقافة ذاتها، لتشجيع وإجراء الأبحاث المختلفة خصوصا في الآداب والعلوم والتكنولوجيا لمواجهة الطلب المتزايد على نوعية هذه المعرفة، واستغلال تنشئة أجيال شابة، واعية بتراثها ومقتضيات حاضرها، وأن تتزود بالثقة الفكرية والعقلية وبالملكات النقدية اللازمة لمواجهة القضايا المعاصرة.